بركه خان

أول مسلم من ملوك التتار

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

انقسمت مملكة جنكيزخان بين بنيه الأربعة: جوجي وجغتاى وأوكتاى وتولوى ، وذرياتهم . تسلط تولوى أصغر أبنائه على منغولستان الشرقية ، فورث ملك أبيه في مملكته الأصيلة .

وكان من أولاده الذى فتحوا إيران والعراق ، وأزالوا الخلافة العباسية من بغداد . وتولى أوكتاى على جونغاريا فى أواسط آسيا . وملك جغتاى فيما وراء النهر . وحكم بنو جوجي وهو أكبر بنى جنكيز فى صحراء القفجاق (دَشت قبجاق) وما يجاورها .

— ٢ —

وكان جنكيز أعطى ابنه الأكبر جوجى الأرض التى شمالي نهر سيحون حيث قامت من قبل مملكة قراختاى ، ولكن جوجى سار صوب الغرب فاتحاً ثم خالف على أبيه ، ومات فى حياة والده ، فورث ملكه ابنه الأكبر أوردا

وكان لجوجى أربعة أبناء آخرين : باتو وتوقاتيمور وشيبان ونوغاى ، تولوا هم وذرياتهم الملك فى شرقي أوربا ، صحراء القفجاق وما يتصل بها كما تقدم ، وقد دام الملك فى شعبة منهم حكمت فى القريم حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى (١٧٨٣ م) . وفى شعبة أخرى ملكت فى بخارى وخيوه إلى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى)

وكان أعظمهم شأنا وأوسعهم سلطانا باتو وذريته ؛ ودام الملك لهم زهاء قرن ونصف (٦٢١ ـ ٧٦٠ ق)[1] . وكانت دار ملكهم مدينة سراى على نهر إتل (نهر الفُلجا)

— ٣ —

توفى باتو سنة ٦٥٣ فخلفه ابنه سرتاق سنة واحدة ، ثم تولى بركة (بركاى) عشر سنين بين سنتى ٦٥٤ و ٦٦٤

بركاى حفيد جنكيز وسليل هؤلاء المغول الذى دمروا الحضارة الإسلامية ، دخل فى أخوّة الإسلام ، وصار من بناة الحضارة الإسلامية ، وحماة علمائها ، فلم يعرف بعد باسم بركاى ، ولكنه صار « أبا المعالى ناصر الدين بركة خان » ، وحالف المسلمين ولا سيما ملوك مصر على ابن عمه هلاكو ليرد عدوانه عن المسلمين ، ويكف يده عن تدمير حضارتهم .

كان إسلامه من بركات الشيخ نجم الدين كُبرَى الصوفى المعروف ؛ فقد بث دعاته فى الأقطار للدعوة إلى الإسلام . وكان من تلاميذه الشيخ سيف الدين الباخرزى فأرسله إلى بخارى وأرسل سيفُ الدين أحد تلاميذه إلى بركاى فدعاه إلى الإسلام ، وبيّن له عقائده وشرائعه ، فاستجاب له وأسلم ، ثم ذهب إلى الشيخ الباخرزى ، فأكرمه وأجلّه وجدّد إسلامه ورجع إلى دار ملكه يدعو إلى الإسلام ، ويعظم شعائره ، ويبر علماءه ، فأسلمت زوجه ججك خاتون واتخذت مسجداً من الخيام يحمل معها إن سارت

(١) من أشق الأبحاث التاريخية تأريخ دول المغول وتعيين أزمنتها ومواطنها .

الصحيفة الغراء لا تسمح بالتصريح ، فإننا لا نتعدى النطاق المرسوم إذا قلنا إن هذه « الفكرة » تلاقى مقاومة من أهوائنا وغاياتنا المتنازعة في الداخل ، ومن المطامع والمصالح المتضاربة فى الخارج . وهذه المقاومة نفسها كفيلة بتحقيق هذه الفكرة فى يوم يقاس قربه أو بعده بمقياس استعدادنا للتضحية فى سبيلها .

فيارجال السياسة والاقتصاد ، ويارجال القانون والاجتماع ، أيها المهيمنون على مقدرات هذا الشرق ، المسؤولون عن مصايره ، اتخذوا اليوم من ذكرى هذا الحادث التاريخى العظيم ـ التي يحتفل بها مئات الملايين من المسلمين ويشاركهم فيها مواطنوهم من سائر المذاهب ـ اتخذوا لنا ولكم من هذه الذكرى عظة ، ومن هذا العيد عبرة !

أنطون الجميل

وكاتب ناصر الدين بركة الخليفة المستعصم وبايعه وأرسل إليه الهدايا . يقول ابن عربشاه وهو عليم بأحوال بركة وأمور مملكته ؛ أقام فى مدينة سراى دار الملك سنين وتزوج بها وولد له فيها أولاد :

« ولما تشرف بركة خان بخلعة الإسلام ، ورفع فى أطراف الدشت[1] للدين الحنيفى الأعلام ، استدعى العلماء من الأطراف والمشايخ من الآفاق والأكناف ، ليوقفوا الناس على معالم دينهم ، ويبصروهم بطريق توحيدهم ويقينهم . ويدل على ذلك الرغبات ، وأفاض على الوافدين منهم بحار الهبات ، وأقام حرمة العلم والعلماء ، وعظم شعائر الله وشعائر الأنبياء . وكان عنده فى ذلك الزمان وعند أوزبك خان بعده وجانى بك خان ، مولانا قطب الدين العلامة الرازى ، والشيخ سعد الدين التفتازانى ، والشيخ جلال الدين شارح الحاجبية ، وغيرهم من الفضلاء الحنفية والشافعية ، ثم من بعدهم مولانا حافظ الدين البزازى ومولانا أحمد الخجندى رحمهم الله تعالى . فصارت سراى بواسطة هؤلاء السادات ، مجمع العلم ومعدن السعادات ، واجتمع فيها من العلماء والفضلاء ، والأدباء والظرفاء ، ومن كل صاحب فضيلة ، وخصلة نبيلة جميلة ما لم يجتمع فى سواها ، ولا فى جامع مصر ولا قراها »

ويقول ابن بطوطة عن مدينة سراى : « وفيها ثلاثة عشر مسجداً لإقامة الجمعة أحدها للشافعية . وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جداً . »

أسلم بركة فشملته أخوة الإسلام الجامعة ، وهدته سنته الرشيدة ، وتبنته الحضارة العظيمة التى اجتمعت عليها عقول المسلمين وأيديهم منذ قرون . وتقطعت الأسباب بينه وبين قرابته من المغول ، وانفصمت بينه وبينهم الأواصر ، ووقعت العداوة بينه وبين ابن عمه هُلاكو ، وثارت الحرب بينهما . فأمر بركة جنده الذين كانوا فى جيوش ابن عمه أن يخذلوه ويرجعوا فإن لم يستطيعوا فليتوجهوا تلقاء الشام ومصر ليعينوا الملك الظاهر بيبرس على هلاكو . فانظر إلى أمراء المغول الذين شاركوا فى تدمير البلاد الإسلامية ، وقاتلوا المصريين فى عين جالوت وغيرها ، يقودهم الإسلام إلى مصر نجدة للمسلمين على حرب هلاكو وأشياعه

بلغ أمراء بركة دمشق فى السابع والعشرين من ذى القعدة سنة ستين وستمائة ، وهم زهاء مائة معهم نساؤهم وأولادهم ، وأخبروا بانتصار بركة على هلاكو فشاعت البشرى فى الشام ومصر ، وسر الملك الظاهر بقدومهم ، وكتب إلى نوابه فى الشام فأكرموا وفادتهم وأرسل إليهم الأقوات والخلع . ثم ساروا إلى مصر ، فبلغوا القاهرة يوم الخميس الرابع والعشرين من ذى الحجة ، وخرج السلطان للقائهم يوم السبت ، وخرج أهل القاهرة والفسطاط لرؤيتهم ، واحتفوا بهم حفاوة عظيمة ، وأنزلوا فى دور بنيت لهم فى اللوق ، وأرسل إليهم السلطان الأموال والخيل والخلع ولعب معهم الكرة وأمّر أكابرهم على مائة فارس . وأسلموا وحسن إسلامهم . ولما بلغ التتار ما نال هؤلاء من الكرامة فى مصر وفدوا جماعة بعد أخرى . وقدم البريد من حلب فى ذى القعدة سنة إحدى وستين بأن جماعة من التتار يزيد عددهم على الألف ومعهم ثلاثمائة فارس من المغل قادمون إلى مصر ؛ فأمر السلطان بالحفاوة بهم ، ثم استقبلهم حين قدموا كما استقبل إخوانهم من قبل ولحقت بهؤلاء جماعات أخر

وتوالت الرسائل بين الملك الظاهر بيبرس وبين الملك بركة خان وحرضه الظاهر على جهاد هلاكو ومحاربة التتار ولو كانوا أهله « فإن النبى صلى الله عليه وسلم قاتل عشيرته الأقربين وجاهد قريشاً ، وليس الإسلام قولاً باللسان ، والجهاد أحد ما له من الأركان »

كذلك سبق بنو باتر إلى الإسلام وشرع الدين الحنيف يفتح قلوب التتار ، ويدخلهم فى إخوته وينظمهم فى جماعته ويطبعهم بحضارته . وهزم بالدعوة الظافرين بالسيف ، وغلب فى السلم الغالبين فى الحرب ، ولم تستعص قسوة التتار على هدى الإسلام ، ولا كبرياؤهم على عزته ، ولا عداوتهم على مودته ، ولا إفسادهم على إصلاحه ، ولا تخريبهم على تعميره . وإنها لآية من آيات هذا الدين ، وحجة على من زعم أن الناس دخلوا فى الإسلام كارهين

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

(١) يعنى دشت قبجاق « صحراء القفجاق »